

كلية الآداب
والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإسلامية
-جامعة تلمسان-

النص القرآني بين التفسير والتأويل

الملخص:

قال الإمام بدر الدين الزركشي: "كتاب الله بحرٌ عميق وفهمه دقيق، لا يصل إلى فهمه إلا من تبخر في العلوم، وعامل الله بتقواه في السر والعلانية، وأجلّه عند مواقف الشبهات، واللطائف والحقائق لا يفهمها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، فالعبارات للعموم وهي للسمع، والإشارات للخصوص وهي للعقل، واللطائف للأولياء وهي للمشاهدة، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام" [البرهان في علوم القرآن].

بالرجوع إلى زمن التبريل نجد استعمال لفظ "التأويل" كان مرادفاً لمعنى التفسير والتدبر، ومنه دعوة النبي عليه الصلاة والسلام لابن عباس "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"، أي عرفه معاني الآيات، وهذا هو المعنى الذي دلّ عليه لفظ "التأويل" في آي القرآن. ولما فهموا الصحابة ذلك لم يتكلفوا في التنقيب عن بعض المعاني الغامضة، واستمر الأمر بعد ذلك. بل نجد من التابعين من تخرج كثيرا من القول في القرآن بالرأي، سداً لذريعة إتباع الهوى أو مخافة الخوض في الغيبيات. حتى انقضت القرون المفضلة الأول، فانتشر الرأي واستفحل أمر الفرق الكلامية وظهر التأويل كمصطلح ارتبط

مفهومه أساساً بالفكر والعقل. استعمله علماء الكلام في كثير من الأحيان كسلاح للدفاع عن العقيدة الإسلامية، واستعمله الفقهاء أداة لاستنباط الأحكام الشرعية وتأسيس قواعدها الأصولية، واستعمله البعض وسيلة للكشف عن حقائق النص، من خلال إدراك المعاني الباطنية له. واعتبره البعض ظاهرة لغوية متجددة، باقية ما بقي النص القرآني.

الإشكالية:

- فأى واحد من هذه الاستعمالات منطبق مع ما ورد في القرآن الكريم من لفظ "تأويل"؟
- هل التفسير والتأويل -الاصطلاحين- بمعنى واحد؟ أم بينهما تغاير؟
- وهل تطور مفهوم التأويل بتطور اللغة-باعتبارها الآلة المستعملة- في فهم النص القرآني؟
- وما مدى صحة الدعاوى المنادية بإعادة النظر في قراءة النص القرآني؟ وإذا صحت، فهل هي على إطلاقها؟ أم وجب تحديدها بضوابط وشروط؟
- إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد كلمة "تأويل" هي الأكثر استعمالاً والأسبق نزولاً - حسب الترتيب الزمني- من كلمة "تفسير". فقد وردت كلمة "تأويل" أولاً في سورة الأعراف، ثم تلتها "تفسير" مرة واحدة في سورة الفرقان، ثم تابعت لفظة "تأويل" - تاريخياً- على النحو التالي: الإسراء/يونس/يوسف/الكهف، أما آل عمران والنساء فمدنيتان.
- وإذا رجعنا إلى معاني هذه الآيات نجد أن الخطاب الإلهي استعمل لفظة "تأويل" بإطلاقها اللغوية المذكورة في معاجم العربية، على حسب مواضعها

المناسبة في كل آية، ولم يقصد الاصطلاح المتعارف عليه في علوم القرآن أو علوم الكلام⁽¹⁾.

فمثلاً في الأعراف نجد قوله تعالى: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ.." [53] أي ما يؤول إليه أمره من تبين صدقه .. وفي الإسراء أمر الله تعالى بالعدل في الوزن والكيل ثم قال "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ" [35] أي أحسن عاقبة، وكذا الأمر في يونس [39.38]. وفي يوسف الآيات على سبيل المثال: [6-21-42-100] يأتي التأويل - تقريباً - في تعبير الرؤيا وتفسيرها⁽²⁾.

أما الآية السابعة من سورة آل عمران فهي التي تثار الخلاف حول معنى التأويل فيها، فمن وقف على لفظ الجلالة "وما يعلم تأويله إلا الله" جعل واو "والرأسخون في العلم" للاستئناف، فيقول هؤلاء: آمنا به كل من عند ربنا، وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون الفتنة ويريدون تأويله، أي تحريفه على ما يريدون. ومن وقف على "والرأسخون في العلم" جعل الواو للعطف، وقال: للعلماء في تأويل القرآن والوقوف على معانيه نصيب، ولهذا قال ابن عباس: "أنا من الرأسخين في الدين يعلمون تأويله"⁽³⁾.

وبالجملية فمدار الاستعمال القرآني لكلمة تأويل هو: المال، والعاقبة، والإيضاح، والتفسير.. وكلها مرادفة للمعنى الوارد في سورة الفرقان المتضمنة كلمة "تفسير"، قال تعالى "وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا" [33].

إذا تبين ذلك، علمنا أن التأويل بمعناه الاصطلاحي - عند المتأخرين^(*) - حادث، وهو الذي يقصدون به "صرفُ اللفظ عن المعنى الظاهر (الراجح) إلى معنى آخر (مرجوح) لدليل يقترن به"⁽⁴⁾، وهو بذلك

يختلف عن التفسير بمعناه الاصطلاحي. وهذا ما جعل الكثير من العلماء يقيّدون عملية تأويل النص بعدم مخالفتها للمروي من الآثار الصحيحة وقواعد العربية، ويحصرونه في ما يقع فيه اللفظ من الاشتراك، أو ما يرجع فيه الأمر للنظم وغيره⁽⁵⁾.

وإذا جئنا إلى دراسة الجانب اللغوي والأسلوبي للنص القرآني وجدنا ما يعزز هذا، إذ من الباحثين من يعتبر "التأويل ضرورة لغوية لازمة في الكتب الإلهية بخاصة، فهي تحمل للناس سلوكهم في الحياة، وظاهر ألفاظها لا يفي بأغراضها المقصودة، فالأوضاع الشكلية لا تعطينا إلا معنى المقال، أو المعنى الحرفي كما يسميه النقاد، أو معنى ظاهر النص كما يسميه الأصوليون"⁽⁶⁾. لهذا من اكتفى بظاهر التفسير-أو بظاهر الألفاظ- لم يصل إلى فهم حقائق المعاني كما قال الإمام الزركشي، وضرب لذلك مثالا، قال تعالى: "وَهَا رَهِيْبَةً إِذْ رَهِيْبَتَهُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَهْيٌ" [الأنفال: 17] فظاهر تفسيره واضح وحقيقة معناه غامضة، فإنه إثبات للرمي، ونفي له، وهما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه، ولم يرم من وجه، ومن الوجه الذي لم يرم ما رماه الله عز وجل⁽⁷⁾.

هكذا أصبحت الحاجة ماسة إلى استعمال التأويل في مجال الفقه والتشريعات، لاعتماد الفقهاء على إعمال الرأي في عملية الاستنباط، وها هو الإمام أبو حنيفة يلجأ إلى ذلك في حديث زكاة الأنعام الذي جاء فيه "فِي أَرْبَعِينَ شَاةٍ شَاةٌ إِلَى مِئَتَيْنِ وَهَاتِي" [رواه أبو داود وابن ماجة والبيهقي] حيث يرى عدم وجوبية الشاة عينا وتدفع قيمتها مالا، مراعاة للحياة الاجتماعية⁽⁸⁾، وهنا ننوه بمرونة اللغة العربية وحسن طواعيتها، مما يسهل التصرف في وجوه الدلالة⁽⁹⁾ ما يلائم مصالح الناس ويحقق توازن حياتهم.

وللنحاة وأهل البلاغة والأسلوب مجال رحب في استخدام التأويل، "وهما
 حرفه الألفاظ بمن ظاهرها فهي المجاز والاستعارة والتشبيه إلا
 التأويل بعينه"⁽¹⁰⁾. فقوله تعالى "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ"
 [الكهف 29]، وإن كان ظاهره التفويض والاختيار إليهم إلا أن باطنه التهديد
 والوعيد لهم، والدليل على ذلك ما يعقبه من قوله "إِنَّا أَمْتَحِنُكُمْ لِلظَّالِمِينَ
 فَلَاوًا.." [الكهف 29]⁽¹¹⁾.

أما مجال الأصول والعقائد فهو عمود الرحي الذي دار حوله الخلاف
 كثيرا، خاصة الآيات المتعلقة بصفات الذات العلية والتي توهم التشابه بين
 الخالق والمخلوق، فذهب فريق إلى إمرارها كما جاءت دون كيف على ما
 كان عليه المتقدمون، وجنح بعض المتأخرين إلى تأويل نصوصها متأثرين
 بذلك بآراء الجهمية والمعتزلة، والذين تأثروا هم الآخرون بفلسفات اليونان
 القائمة على تأليه العقل والبحث فيما وراء الحياة⁽¹²⁾. وإذا اعتذرنا لهؤلاء
 المتأخرين في تأويلاتهم التي دفعتهم إليها ضرورات الرد على المجسمة المعطلة
 وغيرهم، فإننا لا نعتذر للذين ركبوا مطية تأويل بعض النصوص لموافقة
 آرائهم السياسية كما فعلت الخوارج والروافض، أو وجدائهم القلبية كما
 فعلت الباطنية، أو سلوكاتهم الكشفية كما فعلت الصوفية، وللأسف تحول
 التأويل إلى آلة يتحكم في توجيهها الهوى الشخصي، والأغراض المذهبية،
 والاتجاهات المختلفة. لهذا -حماية لقدسية النص القرآني- وجب على كل
 مشغل في حقل الدراسات التفسيرية التأويلية أن لا يخالف في دراسته
 الصحيح من المأثور، وأن لا يخالف قواعد اللغة العربية، وأن لا يقدم رأيه -
 جازما- عن مراد الله تعالى، وأن يتحرر من كل هوى شخصي يحجبه عن
 حسن فهم النص، وأن لا يدخل بمقررات فكرية سابقة تجعل النص تابعا

لهذه المقررات. ولمن أراد الاشتغال بالتفسير الباطني للنص عليه التأكد من كون هذا الباطن موافق للظاهر المقرر في لسان العرب، وأن يشهد له نص أو ظاهر في محل آخر دون معارض شرعي أو عقلي⁽¹³⁾.

الدعوة إلى تجديد قراءة النص القرآني (التجديد التفسيري) وضوابطه:
ونرى أن يجمع هذا التجديد بين مجالين متلازمين يشملهما النص القرآني.

● المجال الأول: الدراسات اللغوية والأسلوبية:

فلقد "نزل القرآن بلسان العرب في الجملة، وطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة"⁽¹⁴⁾، وهو "من أهم الطرق التي اتبعها العلماء في التأويل، وذلك لتعلقه أساسا باللفظ ودلالته"⁽¹⁵⁾. وإن الدعوة إلى تجديد القراءة في النص القرآني من خلال التركيز على الجوانب البلاغية والأسلوبية فيه، لا يعني بحال التنكر لجهودات المفسرين القدامى، لكن ربما تركيزهم الجزئي والحرفي للمفردات، وصيغتهم التجريدية⁽¹⁶⁾ هي التي جعلت الحاجة ماسة إلى أن ترتقي الدراسات التفسيرية إلى الاهتمام بالصورة الأدبية للنصوص من جهة، ودقة التصوير ورشاقة الأسلوب من جهة أخرى، كما ترصد القضايا الجمالية والتجسيد الذي يكشف تناسق القرآن وتوافق نظمه⁽¹⁷⁾، وهذا ما يعبر عنه -حديثا- بالمنهج الموضوعي للسورة القرآنية، والقرآن ككل.

كما يجب الحذر من تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوي والإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، فإن للقرآن عرف خاص به، ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها⁽¹⁸⁾. وعلى كل محاولة تفسيرية تجريدية أن تضبط بقواعد العربية ومداليلها، وأن لا تخرج عن المأثور الصحيح، مراعية في ذلك

غاية المتكلم بالقرآن (وهو الله) والمترّل عليه (وهو رسول الله) والمخاطب به (وهم الناس أجمعين) (19).

• المجال الثاني: الدراسات القرآنية وعلوم الشريعة وما يتعلق بها:

إنّ الدعوة إلى إعادة قراءة النص القرآني تفرضه علينا طبيعة المرحلة التي يمر بها المسلمون اليوم، من خلال جملة من التحديات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية.. وجدنا أنفسنا فيها متأخرين عن الركب الإنساني، وإن أردنا اللحاق بهذا الركب فعلى التمسك بكتاب ربنا، نفهم ما جاء فيه فهما كلياً كمنهج للحياة.. نتعرف بعمق على معانيه انطلاقاً من معطيات العصر الذي نحيا فيه، نستخدم في ذلك لغة إنسان القرن العشرين. ولعل أصحاب هذه المهمة الخطرة - ابتداءً - هم أهل العلوم الإسلامية والدراسات القرآنية باعتبارهم أهل الاختصاص وعليهم عبء ميراث الأنبياء. ولمن أراد حمل راية مهمة التجديد التفسيري المعاصر التمسك بالخطوات التالية:

• الرجوع إلى الصحيح من المأثور.

• فهم الآيات ضمن الألفاظ التي كانت معروفة ومتداولة أيام الترتيل.

• استنباط القيم الكلية - مجردة - من النص، وعدم إقحام ذواتنا

وفرض آرائنا.

• الانطلاق من القرآن أنه دستور للحياة، وهذا يستلزم إبراز الجانب

الدعوي والتوجيهي (ويطلق عليه التفسير الهدائي).

• التركيز على النظرة الشمولية لمعاني القرآن مع شرح مبادئه وإبراز

الحكمة من تشريعاته.

• الاستفادة من العلوم المتنوعة والثقافات الإنسانية الحديثة، بالضوابط

العلمية المتعارف عليها عند أهل الاختصاص (ويطلق عليه التفسير العلمي).

- القيام بمراجعة الرصيد الحضاري والفكري، وتنقيته من الانحرافات والانحرافات والإسرائيليات.
- معالجة أسباب تأخر المسلمين، وبيان مظاهر تخلفهم، مع تسليط الضوء على القضايا المصرية الراهنة (ويطلق عليه التفسير الاجتماعي الإصلاحي).
- الاستفادة من جهود السابقين في هذا المجال: كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وأبي الأعلى المودودي، وسيد قطب، والطاهر بن عاشور، وعبد الحميد بن باديس، وأحمد الأمين الشنقيطي، وأحمد المراغي، وطنطاوي جوهري، ووهبة الزحيلي.. وغيرهم كثير⁽²⁰⁾

1. انظر: النص القرآني بين فهم العلماء وذوقهم. مصطفى الصاوي الجويني. منشأة المعارف. الإسكندرية. مصر. ص. 12 بتصرف.
2. المرجع نفسه. ص. 12/13/14/15. بتصرف.
3. انظر: تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. دار الأندلس. لبنان. ج. 2. ص. 6 وما بعدها.
* بعد القرن الرابع هجري.
4. انظر تعاريف أخرى للتأويل: الإتيان في علوم القرآن. السيوطي. دار التراث. القاهرة. ج. 4. ص. 167/168/169.
5. البرهان في علوم القرآن. الزركشي. دار المعرفة. بيروت. ط. 2. 1415 هـ. ج. 2. ص. 318.
6. النص القرآني بين التفسير والتأويل. السيد أحمد عبد الغفار. دار النهضة العربية. لبنان. ط. 1. 1423 هـ. ص. 135/136.
7. البرهان. الزركشي. ج. 2. ص. 291.
8. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. الكاساني. دار الحديث. القاهرة. 1426 هـ. ج. 2. ص. 440.
9. النص القرآني. السيد أحمد عبد الغفار. ص. 137.
10. انظر: مناهج المفسرين في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق. منصور كافي. دار العلوم. الجزائر. 1427 هـ. ص. 85.
11. انظر: النص القرآني. السيد أحمد عبد الغفار. ص. 139.
12. انظر بالتفصيل: أصول التفسير وقواعده. خالد عبد الرحمن العك. دار النفائس. بيروت. ط. 1406 هـ. ص. 234 وما بعدها.

13. ينظر في معنى هذه الضوابط: البرهان. الزركشي. ج. 2. ص. 291 وما بعدها. والموافقات. الشاطبي. ج. 3. ص. 233/235. ومناهج المفسرين. منصور كافي. ص. 108.
14. الموافقات. الشاطبي. ج. 2. ص. 50. وانظر: محاضرات في علم التفسير ومناهج المفسرين. محمد دراجي. دار غريني. الجزائر. ط. 1. ص. 231.
15. النص القرآني. السيد أحمد عبد الغفار. ص. 178.
16. انظر: مناهج المفسرين. منصور كافي. ص. 120.
17. المرجع نفسه. ص. 87/88.
18. محاضرات في علم التفسير. محمد دراجي. ص. 234/235، نقلا عن ابن قيم الجوزية. التفسير القيم. ص. 269 بتصرف يسير.
19. أصول التفسير وقواعده. خالد العك. ص. 228.
20. انظر في ذلك كله: محاضرات في علم التفسير. محمد دراجي. ص. 193.